كتابات المؤرخين المغاربيين خلال العهد العثماني

الأستاذ: قاسمي طاهر

المركز الجامعي نور البشير–البيض

ملخص:

يسعى البحث لتقريب صورة التأليف التاريخي في الأقطار المغاربية خلال العهد العثماني، وكذا المواضيع التي تناولوها في كتاباتهم، ومدى تفاعلهم مع أوضاع واقعهم المحلي والعالمي، مع إدراج الدوافع التي حفزتهم للتأليف والكتابة في مختلف الحقول المعرفية والتاريخية وغيرها، مما يبرز مدى حركية التأليف وأهميتها في هذه الفترة التاريخية رغم الظروف السياسية والاقتصادية المضطربة.

– الكلمات المفتاحية :

– العهد العثماني – التأليف – المؤرخون – المغرب الإسلامي.

Abstract:

The Maghreb historian's writings during the ottoman era

This simple research is an attempt to draw an image about historical authorship in the Maghreb's regions during the Ottoman's era. As well as the themes that presented in their writings، then to what extent did they interact with their local and global fact، including the motivations that supported them for writing in various fields of knowledge and history، which emerge the extent of the authorship movement and its importance in this historical period، despite the political and economic troubled conditions.

Keywords:

- Ottoman era - authoring - historians - the Islamic Maghreb

كان الاعتقاد ولا يزال ولربما عند بعض الأكاديميين، أن فترة الحكم العثماني في البلدان المغاربية في الجزائر وتونس من جانب الإنتاج الفكري والتاريخي يعد ضئيلا، باعتبار أن السلطة العثمانية في شمال إفريقيا كان همها تأمين السواحل من الغارات الأجنبية خاصة الإسبانية والبرتغالية، وجباية الضرائب من السكان المحليين .

ربما كان ذلك هو الطابع الغالب على سياسة العثمانيين، وهذا يرجع إلى ظروف وعوامل محلية ودولية وقتَّذ، بينما لما نتبحر في خوض الميادين الأخرى، نجد عكس ذلك ونصحح الكثير من مفاهيمنا الخاطئة، بحيث نجد عدد لا يستهان به من العلماء خاصة عند مطلع القرن السابع عشر، قد تضاعف عددهم وعدد المصنفات والتآليف، وشهدت المنطقة بشكل عام حركة علمية نشطة وذلك بتشجيع التعليم والعناية بالأوقاف، وشجع على ذلك بعض الأتراك أنفسهم.

بذلك لا يسعنا إلا أن نقول أن العهد العثماني من أهم فترات تاريخ الجزائر وتونس بالخصوص، وكذلك نفس الأمر مع العهد السعدي والعلوي في المغرب، نظرا للأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة، فكتب عنها الكثير من الباحثين في مختلف الموضوعات، كما تعتبر هذه الفترة من تاريخ المغرب العربي الحديث فترة مهمة وأساسية وذلك لعدة اعتبارات نجملها فيما يلي:

1-طول الفترة الزمنية التي استغرقتها هذه الأنظمة السياسية في حكم بلدان المغرب العربي، فالجزائر أصبحت ولاية عثمانية لأكثر من ثلاثة قرون (1518 - 1830م) وتونس نحو ذلك (1574 – 1881م) والمغرب الأقصى تولى السلطة فيه الأسرة السعدية خلال الفترة (1549 - 1666م) ثم جاءت الأسرة العلوية نهاية الثلث الأول من القرن (17م) إلى يومنا هذا.

2- قبيل استلام مقاليد الحكم من قبل هذه الحكومات، كانت سواحل هذه البلدان مسرحا للاعتداءات والتحرشات الإسبانية والبرتغالية، التي أوشكت على تكرار مآسي أخرى في حق سكان هذه البلدان، كما فعلت بالأندلسيين المورسكيين.

3- هذه الفترة الزمنية تعتبر حلقة مفصلية، حافظت فيها هذه الدول على القيم الحضارية و التراثية ورسخت المقومات العربية والإسلامية، لبلدان المغرب الإسلامي.

4- إنها مرحلة عمقت تاريخ وكيان شعوب المغرب الإسلامي وبينت بجلاء مقومات الدولة والهوية السياسية للبلدان المغاربية، وعلاقاتها الإستراتيجية إقليميا ودوليا فبالرغم من الكم المتواضع من الدراسات المعاصرة التي خاضت في هذه المرحلة، إلا أن هذا الإنتاج التاريخي الهائل يحتاج منا إلى تحقيق وتصنيف وإخراج وتصحيح حتى، بفعل ما ألصقته به المدرسة الاستعمارية من تشويه والحط من قيمتها وأهميتها.

من هنا فإني أحاول من خلال هذا البحث الذي يتناول موضوع الإنتاج التاريخي في بلدان المغرب العربي خلال هذه الفترة من التاريخ الحديث؛ أن أجلي بعض الغموض؛ و أعرض بعض الحقائق التاريخية والعلمية التي توصلت إليها.

من بين الأسباب التي دفعتني لأن أطرق هذا الموضوع، هي رغبتي الملحَة في البحث للتعرف على الجانب الثقافي لبلدان المغرب العربي خلال العهد العثماني، وعلى أهم مؤلفات ذلك العصر.

كذلك يمكن أن أدرج سببا آخر، وهو السعي لإعطاء مؤرخينا خلال هذا العصر القدر الذي يستحقونه وتثمين مجهوداتهم الجبارة في بلورة ذاكرة المغرب الإسلامي، فمثلا المؤرخ والرحالة ابن حمادوش الجزائري ظل مجهولا شأنه شأن العامة من سكان مدينة الجزائر رغم أنه كان مثالا للعلماء العاملين، وغيره من العلماء الذين كانت لهم مجهودات معتبرة في حقل التأليف التاريخي.

ومن هنا حاولنا أن نجيب في موضوعنا، على إشكالية تتضمن تساؤلات عدة من بينها: ما هو واقع حركة التأليف التاريخي في الغرب الإسلامي، تونس والمغرب عموما والجزائر بوجه خاص؟ وهل هناك مقاربات فكرية فيما بين هذه الكتابات؟ ومن هم أشهر المؤلفين الذين دونوا مخطوطاتهم خلال العهد العثماني؟ وما دوافعهم في تأليفها؟

1- مجال التأريخ المغاربي والعالمي:

إن واقع استرجاع الأندلس، وعمليات الاضطهاد المسيحي لمسلميها، كان له وقع شديد على الغرب الإسلامي بالخصوص، للاعتبارات العقائدية والجغرافية إضافة إلى عمليات التحرش المسيحي الإسباني على سواحل المغرب الإسلامي، وما نتج عنه من صراع [2].

من جانب آخر فقد أفرزت كل هذه الظروف حركة فكرية عارمة عبر كل بلدان الشمال الإفريقي تمثلت في ظهور وانتشار حركة الزوايا والمشايخ والمتصوفة هي الأخرى سيتولد عنها إنتاج فكري مكتوب بحيث تعددت الكتابات وتنوعت فإلى جانب الإنتاج الكلاسيكي المرتبط بالعلم والعلماء، فقد تطور إنتاج من نوع آخر وتشعبت مجالاته، فتعددت التآليف والرحلات، والتصانيف في شتى العلوم وإن تفاوتت قيمتها وفوائدها، كما اجتهد رجال السياسة في انجاز أعمال بقيت إلى اليوم محط اهتمام ليس فقط المؤرخين بل كذلك رجال الفكر والأدب [3].

هذه المواضيع وغيرها، ستكون أحد أهم محاور التأليف التاريخي عند المؤرخين المغاربيين الذين اشتهروا بتآليفهم التي احتلت حيزا هاما من اهتمامات الباحثين والمؤرخين العرب وحتى الأجانب، ومن جملتهم أحمد المقري صاحب كتاب:

" أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"، اتناول فيه ترجة القاضي عياض وأخبار الأندلس وأهلها [4]،كما تناول في كتاب: "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" الذي ألفه في الشام بحيث في قسمه الأول تناول؛ مظاهر الحضارة في الأندلس ومناخها وعمرانها وبعض أعلامها الذين هاجروا إلى المشرق، ثم أعلام المشرق الذين أقاموا في الأندلس، وأخيرا استعرض الصراع الإسباني الإسلامي وما نتج عنه[5]، هذا الكتاب يجسد المجال العالمي للقضية الإسلامية آنذاك، وحمل همها، وفرض بذلك وجوده الفكري في الشرق والغرب [6].

يتبين لنا من خلال مؤلف أحمد المقري، أنه حاول أن يؤرخ للأمة حينها وليس للمغرب العربي فحسب، لأنه عاش في أكثر من بلد، في الأندلس وفي بلاد الشام، فدوين مظاهر حضارة العرب في الأندلس، كنوع من المواساة والحنين إلى الأرض التي عاش فيها أرغد فترات عمره، وتقلب في كنفها عزيزا مكرما، دون أن ينسى ذكر سحر طبيعتها الغناء ،كما ذكر رجالها كأعمدة للدولة،كما أولى العلماء بالاهتمام كركائز للأمة وإبراز أهميتهم في المجتمع.

أما أحمد بن سحنون الراشدي، الذي كان مؤرخا منشغلا بقضايا الأمة، ويطلع على مجريات الأحداث العالمية، لم يفوته التأريخ للثورة الفرنسية عام 1789م ، ضمن كتابه الشهير: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"[7]، الذي كان بحق مثالا للعالم الذي يهتم بأمر المسلمين وقضايا الأمة، فالثورة الفرنسية لم تشغل الرأي العام والخاص في الشرق فحسب، بل كذلك في المغرب العربي مما يجسد مدى الإحساس والشعور الجماعي المشترك الذي كان يجمع المسلمين شرقا وغربا.

كذلك المفتي الجزائري – المصري ابن العنابي، في كتابه:" السعي المحمود في نظام الجنود"، الذي ألّفه سنة 1826م، والذي يشكل منعرجا خطيرا في لقاء الحضارتين الإسلامية والأوربية[8]، هو الآخر عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب عديدة من الحضارة الإسلامية، كما عاصر في الجزائر حروبا خارجية ضد الإنجليز والأمريكان والفرنسيين والإسبان وغيرها، ومحمد العنابي تولى عدة وظائف رسمية، منها وظيفة القضاء الحنفي، وعاصر بداية عهد التنظيمات في الدولة العثمانية من جهة، وأخذ محمد علي والي مصر عندئذ بمبادئ التمدن الغربية من جهة أخرى، وهذه المبادئ والتنظيمات هي التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب، لأن ابن العنابي كان قريب من مقاليد السلطة، وتولى بعض المهمات السياسية، وكان قد شاهد أسطول بلاده يتحطم أمام الغزو الإنجليزي – الهولندي، وتجول في البلاد الإسلامية فرأى ما عليه حال جيش المغرب الأقصى، وما عليه جيش مصر بقيادة

إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا، وما سمعه عن انتصارات الأوربيين على انكشارية الدولة العثمانية، كما عاش زمن شهد الحروب النابوليونية ومؤتمر فيينا فأراد بذلك أن يصرخ في أرجاء الأمة الإسلامية لتجديد قوتها، والاستعداد للجهاد الحق على غرار ما كان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة، وكان ابن العنابي في معرض كتابه يسوق حججا بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وآراء المجتهدين من أئمة الإسلام ليبرهن أن دعوته نابعة من الكتاب والسنة وأنها في صميم التقاليد الإسلامية [9].

إن نموذج ابن العنابي كمؤرخ واع وبصير بواقع حال الأمة، نستطيع أن نعتبره من العلماء القلائل في المغرب العربي الذين تنبهوا إلى التباعد الحاصل في المستوى الحضاري، بين قوة المسيحيين الناهضة وقوة المسلمين المتراجعة فحاول أن يبدي رؤية تجديدية وإصلاحية لأهم ركيزة في صرح وقوة الأمة وهي" القوة العسكرية "كما سماها "نظام الجنود"، فهدا النظام اعتبره العمود الفقري لقيام أركان الأمة واستعادة أمجادها واعتبر السعي في هذا الإطار من أولويات وواجبات الأمة .

وتناول أبو راس الناصري الحملة الفرنسية على مصر والشام وآثارها على المجتمع الإسلامي، وكان أبو راس قد حج مرتين، مرة قبل الحملة سنة 1789–1790 م ،ومرة بعدها سنة 1811م، و كانت له فرصة في الحجة الثانية ،أن يشاهد بنفسه آثار الحملة في مصر والحجاز والشام، ويسمع عنها من أفواه العلماء وغيرهم، لذلك فان حكمه صادر بعد مقارنته لأحوال المسلمين، وكان ذلك ضمن كتابه: "الحلل السندسية ..."، وقد استعرض في النص الذي يخص الحملة ، التخريب الذي أصاب مصر ويافا وصيدا وعكا، وسلب الفرنسيين أموال الناس (وحمل قناطير مقنطرة من المال ... وأثقلوا أهل مصر بالضرائب المتكررة، وإهانة الفرنسيين للمساجد والمقدسات... وشتتوا خزائن الكتب .. وداسوها بالأرجل وحوافر الخيل ...) [10]، في رأينا أن أبا راس كان ينظر إلى الفرنسيين في مصر والشام نظرته إلى الإسبان في اضطهادهم

للمورسكيين واحتلالهم لثغور المسلمين في وهران وسبتة ومليلية، فكلهم معتدون يجب على أمراء المسلمين جهادهم.

لذلك كان أبوراس ثائرا ضد هؤلاء الذين تهاونوا في نظره عن نصرة الدين وتخليص الأمة الإسلامية من الغزاة الأجانب، فهو يتهمهم باتباع الشهوات والخلود إلى الراحة واستغلال شعوبهم والتخلي عن الجهاد ،ويعتبر أن هذا هو سبب وقوع مصر في يد الفرنسيين، حيت صدح قائلا:

مالت ملوكنا لحضيض راحتهم وأكلونا كأكل الداجن العلس

واعرضوا عن جهاد الكفر قاطبة حتى ارتمت (مصر) نا العظمى بمرمرس[11]

من هنا وكأننا أمام شهود على عصر، كلهم أجمعوا على تزايد القوة العسكرية للأوربيين مع استباحتهم لأطراف من العالم الإسلامي، حاولوا بذلك أن يبحثوا عن الوسائل التي توقظ الأمة من غفلتها، وينفخوا فيها من روح الغيرة على الأنفس والحرمات والأموال لاستنهاض الهمم للجهاد ونفض غبار الذل والهوان وإصلاح شأن الأمة الإسلامية.

مؤرخ مغاربي آخر، وهو محمد بن مصطفى المشهور باسم بيرم الخامس[12] ولد بتونس، وكان محبا للحرية والدعوة لإصلاح أساليب الحكم و تأسيس نظم شورية تقوم على أسس إسلامية، كانت له سياحات وجولات في مختلف بلدان أوربا والشرق واتصل برجال السياسة في فرنسا واسطانبول، ولما يئس من إصلاح الحالة السياسية في تونس، وتأكد من عزم فرنسا ضم البلاد التونسية إلى بقية مستعمراتها مع ضعف السلطة السياسية وانحلالها، عزم على الهجرة وقصد أداء فريضة الحج، فزار مصر والحرمين ثم قصد الشام واسطانبول، واحسنت الدولة العثمانية قبوله واستشارته في ما يهم إصلاح شأن المسلمين، فألف هناك كتابه :" صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" وهو عبارة عن رحلة عامة في أوربا و المشرق الإسلامي. ذكر فيها كثيرا من الحقائق التاريخية والإجتماعية عن بلاد المغرب وتونس والجزائر، كما أنه كان

يتحدى الأفكار الإستعمارية وأطروحات المستشرقين من خلال كتاب: " تجريد السنان للرد على الخطيب رينان"، حيث رد فيها على خطبة للمستشرق والمؤرخ الفرنسي أرنست رينان (1823–1893 م) موضوعها (الإسلام والعلم) [13].

إن الحملة على الإسلام والمسلمين لم تكن عسكرية فحسب، بل تعدتها إلى النشاط الاستشراقي الذي تزايد في البلاد الإسلامية وتوجيه المستشرقين سهامهم نحو الإسلام و المسلمين خلال هذه الفترة من الزمن، لزعزعة المفاهيم أساسية في الثقافة الإسلامية وتشويه حقائق في الدين الإسلامي لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، وبالتالي تصدع الجبهة الداخلية للمسلمين وزرع البلبلة في صفوفهم.

أما المؤرخ (الإسلامي) خير الدين التونسي[14]، على الأقل من خلال طرح إشكالية التخلف في العالم الإسلامي في كتابه الذي اشتهر لحظة إصداره سنة 1867م، وهو كتاب: " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وترجمه إلى عدة لغات، حيث وصل صداه إلى أقصى العالم الإسلامي وأوربا، ففي الجزائر كانت جريدة "المبشر" الرسمية الصادرة باللغة العربية والفرنسية، المقروءة، خصوصا لدى الموظفين في الإدارة الإستعمارية، مثل القياد والقضاة، والعلماء المترجمين، كتبت في حلقات ابتداء من أول أكتوبر سنة 1868م، حلقات حول كتاب خير الدين السالف الذكر: "أقوم المسالك ..."، لأن هذا الكتاب أضحى عزيزا على الكثير من القراء[16]،كما أدرج الشيخ عبد القادر المجاوي – أحد أعمدة التدريس في الجزائر وقسنطينة– قصيدة طويلة وقوية في مدح خير الدين باشا التونسي لأحد الشعراء وهو الشيخ إبراهيم سراج المدني الذي كان يعيش في الحجاز[17]، شأنه شأن المثقفين المسلمين الذين يتتبعون أحوال العالم الإسلامي ويعجب ببعض قادته ويعبر عن غيرته على الإسلام أمام الغزو الأوربي[18].

فخير الدين كبيرم الخامس؛ كلاهما من أبرز رموز رجال التجديد واليقظة في المغرب العربي، نظرا لمساعيهما في تكريس مبادئ الحرية والشورى والدعوة إلى إصلاح

أساليب الحكم، فبيرم الخامس كرّس حياته للتجديد الفكري الإصلاح السياسي الذي ضل متنقلا بين الأقطار الإسلامية داعيا إلى إصلاح أوضاع الأمة، بينما خير الدين اعتبر صاحب نظرية لإصلاح وتجديد الأمة أملا في انبعاثها مرة أخرى، وذلك عن طريق الاقتباس والمزج بين ما عند أوربا من أساليب وتقني وما عند المسلين من مبادئ وأسس المدنية، مع التأكيد على ضرورة إلغاء الحكم المطلق لأنه مؤذن بخراب الأمم.

أما كتاب: " تحفة الزائر ..."، الذي هو من تأليف الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، فقد احتوى على وثائق هامة تخص المراسلات بينه وبين خير الدين، ونظرا لقيمة الأمير الجهادية والعلمية في المشرق، فقد أهدى خير الدين لابن الأمير نسخة من كتابه " أقوم المسالك ..."، ومعها خطاب خاص[19]، نوه الأمير بالكتاب، وقال: أنه يبهر العقول لتناوله فنون المعارف وقضايا المعقول والمنقول، فاتفقت القلوب على تفضيله)[20].

من هنا نلاحظ بجلاء كيف كانت الأحداث السياسية الكبرى، وربما المصيرية للأمة تؤثر وتوجه بشكل كبير في حركة التأليف التاريخي للمؤرخين المغاربيين، كما كان واجب النصح للأمة والهم الإصلاحي شغلهم الشاغل فالمؤرخ المغاربي كان بمثابة القلب النابض للأمة، والمعبر عن آلام وآمال أمته، فجاءت كتاباتهم في هذا الشأن تمثل لب المادة التاريخية خلال ذلك العصر.

2- مجال التأريخ المحلي والرحلات:

سنجد أن كم التأريخ للوقائع والأحداث المحلية في الأوطان المغاربية كثير، ومتنوع يشمل بعض الأعمال العسكرية، والتراجم العامة، والتراجم الخاصة، والرحلات بأنواعها، مقارنة بالتأريخ للأحداث المغاربية والعالمية، باعتبار الأولى أقرب إلى هموم المؤرخ والرأي العام الشعبي وحتى حياة المؤرخ الخاصة، بحيث كثرت حركة التأليف

خلال العهد العثماني في القضايا ذات البعد المحلي والوطني، في الدول المغاربية الثلاث، كونها كانت تمثل دولا مركزية، متباعدة نسبيا وتحكمها أنظمة متباينة [21].

إن أهم الأحداث المحلية التي هيمنت على الكتابات التاريخية في المؤلفات المصدرية في الجزائر نجد، حدث فتح وهران[22] الثاني ويليه الأول وأحداث أخرى ربما أقل أهمية في البلدان المغاربية الأخرى.

كان تأليف كتاب: "التحفة المرضية في الدولة البكداشية" لصاحبه ابن ميمون الجزائري[23] يحتوي على ست عشر مقامة مرصعة بأبيات شعرية تمجد الباي محمد بكداش وانجازاته الخالدة خاصة فيما يتعلق بفتح وهران[24]،كما ألف الشيخ محمد بن أحمد الحلفاوي مفتي تلمسان، رجزا طويلا احتوى على 72 بيتا قسمه إلى خمسة فصول، فخصص الفصل الأول في عرض دولة محمد بكداش، أما الفصول الأخرى فذكر فيها أخبار تجهيز الجيش الجزائري، وسير المعركة ونتائجها[25].

أحد الشعراء ألف قصيدة مطولة يصف فيها حادثة استيلاء العثمانيين في عهد السلطان أحمد الثالث على مورية، هذه القصيدة تحتوي على 570 بيتا، يصف فيها الشاعر حيثيات سير المعركة بين الطرفين[26].

لقد ألهب حادث فتح وهران الثاني 1792 حماسة النخبة المثقفة والباي محمد الكبير، الذي قام بحركة علمية رائدة، حيث فتح مجال هام للحركة العلمية التأريخية بوجه الخصوص، فضلا عن أهمية الحادث كونه يمثل إنجازا وطنيا ومغربيا وإسلاميا هاما. نجد المؤرخ أبي راس الناصري في مقدمة المهتمين للتأريخ لهذا الحادث في كتابه: "الحلل السندسية ..."، و بما فيها " عجائب الأسفار ..." الذي ضمنه أخبارا أخرى[27] كذلك المؤرخ ابن زرفة كتب عن فتح وهران في مؤلفه: "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، الذي تناول فيه عملية الفتح بدءا من الحصار حتى الاستيلاء النهائي على وهران، ورتب الأحداث وفق الشهور القمرية[28].

إن هذا النوع من الأحداث كانت تلهب حماس العامة والخاصة من العلماء والمؤرخين معا إلا أن المؤرخين كانوا يسارعون لجمع أخبارها وتفاصيلها لتدوينها وتسجيل بطولاتها ووقائعها كجزء من الواجب الذي لابد للعلماء من تخليدها واستغلالها في بث روح التضامن و الجهاد لإخراج العدو من البلاد أو دفع عدوانه وأطماعه.

في موضوع آخر ضمن الموضوعات العمة والشاملة نجد كتاب: " الحلل السندسية في الأخبار التونسية"، لصاحبه محمد مصطفى الأندلسي المشهور بالوزير السراج [29]، وهو تأليف شامل عن تاريخ تونس من بداية الحكم العربي إلى العهد العثماني، وقد خص هذه الحقبة الأخيرة بمعظم الكتاب مع عناية بالنواحي العمرانية والعلمية، وهو مقسم الى أربعة مجلدات.

تكاد مؤلفات المسلمين منذ العصور الأولى، لا تخلو من فن التراجم العامة، والتراجم الخاصة، والتي سيكون لها دور بارز في حركة التأليف التاريخي في المغرب العربي بمؤلفات معتبرة، خلال العهد العثماني، من خلالها نستشف بعض الأحداث التاريخية والواقع السياسي والحضاري للمغربي العربي الحديث.

نجد عند أحمد المقري مؤلف هام في تراجم رجال العلم المغاربة بعنوان: "روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"، عرف فيه بعلماء المغرب الأقصى الذين التقى بهم لما كان في المغرب، والبعض لقيهم في المشرق أثناء اقامته هناك[4].

وكذلك كتاب: "الدرة المصونة في علماء و صلحاء بونة"، لصاحبه أحمد بن القاسم البوني، وهي ترجمة عامة لعلماء وأولياء مدينة عنابة وأحوازها ضمن نظم يتكون من ألف بيت عرف فيه بشيوخه وعلماء عصره، كما ترجم فيها لعلماء من باجة وتونس والقيروان، وكذلك من المغرب الأقصى[30].

هناك بعض أسماء في التراجم العامة، التي يبدو أنها مذكورة فقط ضمن مؤلف أبي راس الناصر دون وجودها، من بينها: "الزهرة الوردية في الملوك السعدية" و"الزهرة السماوية في أخبار الملوك العلوية"[31].

إن تآليف بعض المؤرخين المغاربيين، تخصصت في تناول سير العلماء والأعلام المغاربيين وطبقاتهم، وأخرى تخصصت في عرض الواقع السياسي للأسر الحاكمة، وهذا ليس جديدا على فن التأليف التاريخي في المغرب العربي، علما أن هذا النمط من التآليف هو الآخر من الفنون المتناولة بكثرة عند العلماء والمؤرخين العرب والمسلمين قديما وحديثا، إلا أنها تختلف أهميتها وجودتها من حيث الفترة التاريخية المستهدفة، فالعصور الأولى أو صدر الإسلام، تختلف من حيث حجم الكتابات عن العصور المتأخرة ، وكذا طبيعة الطبقة المتناولة وتخصصها.

خلال القرن 11هـ، نشطت حركة التأليف في الجزائر، فظهر في قسنطينة عبد الكريم الفكون، الذي ألف كتابا في التراجم عنوانه: "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، بحيث يضم 75 ترجمة لأعلام من حاضرة قسنطينة[32] ويضم منشور الهداية أربعة أصناف من التراجم لكل فصل صنف خاص به الفصل الأول يتناول فيه الفكون أربعة وعشرين عالما التقى بهم أو سمع عنهم، أما الفصل الثاني فقد أفرده لمن تولوا المنصب الشرعي من غير أهلية له، وعددهم اثنان وعشرين، وأفرد الفصل الثالث لمن ادعى الولاية من الدجالين والمبتدعين، وهم خمسة عشر ثم أنهى ترجمته بتناول بعض أصحابه وأحبابه، كرجال العلم في الفصل الأخير[33]، والذي يبدو فيه حاملا هم مجتمعه، الذي انتشر فيه الجهل والفساد والبدع والشعوذة[34]، وهذا المؤلف يقدم لنا صورة عن الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية، ويسلط الأضواء على الصراع المحتدم بين الفقهاء والمتصوفة وبين السلطة والعلماء[35].

عبد الكريم الفكون واحد من العلماء الذين أرادوا أن يصححوا مهمة ودور العلماء في المجتمع، فرفض تولي المنصب من أجل التكسب أو نيل الحضوة بين الناس

بدعوى المكانة العلمية ودرجة الولاية اللتان لم يصل إليهما بجدارة واستحقاق، كما استهجن ممارسة التصوف المشوب بالشعوذة والدجل، كما عدد مجموعة من العلماء الربانيين الذين يستحقون الاحترام والمكانة في المجتمع ولكن حسب المعايير التي وضعها عبد الكريم الفكون.

يعتبر أحمد المقري من أبرز مؤلفي الترجمة الخاصة بشكل متقن، بحيث تتبع حياة وأخبار المترجم لهم، كما يذكر شيوخهم ومؤلفاتهم وعلاقتهم بالسلطان ثم وفاتهم وآراء الناس فيهم، ويبدو أنه متأثر في ذلك بمنهج لسان الدين بن الخطيب في كتابه: " الإحاطة بأخبار غرناطة ". ويعود للمقري الفضل الكبير في التعريف بالقاضي عياض، ولسان الدين بن الخطيب، فقد تناول في كتابه: " أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح و ارتياض"، جميع جوانب حياة القاضي عياض تقريبا، وقد قسم المقري كتابه هذا إلى رياض وليس إلى فصول أو أبواب، وجاء في ثمان رياض على النحو التالي: روضة الورد في أولية هذا العالم الفرد، روضة الأقحوان في ذكر حاله في النشأة والعنفوان، وروضة البهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار، وروضة المنثور في بعض ما له من منظوم ونثور، وروضة النسرين في تصانيفه العديمة النظير والقرين، وروضة الآس في وفاته وما قابله به الدهر الذي ليس لجرحه آس، وروضة الشقيق في جمل من فوائده و لمع [36]، لكن المقري في ترجمته للسان الدين بن الخطيب قد غير طريقته السابقة ففي كتابه: "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وأخبار وزيرها لسان الدين بن الخطيب "، فإنه خص القسم الثاني من هذا الكتاب لترجمة لسان الدين بن الخطيب، وقد قسم هذا القسم إلى ثمانية أبواب تكلم في الأول عن قبيلة وأسلاف ابن الخطيب، وفي الثاني عن نشأته وترقيته ووزارته وما لقي من ذلك من أيام عز وأيام هوان، ذكر قصوره وأمواله وتقلبات الزمان ضده، وفي الباب الثالث عن مشائخه وثقافته، وفي الرابع عن خطابات الملوك والأكابر الموجهة إليه وثناء أهل العصر عليه، وفي الخامس جملة من

نثره وشعره وأزجاله وموشحاته، وفي السادس عن تلاميذه، وأخيرا عن أولاده ووصيته لهم[37].

وكما اهتم المسلمون الأوائل بتدوين الرحلة ابتداء من القرن الثالث الهجري، كذلك اهتم مسلمي المغرب الإسلامي في الجزائر والمغرب الأقصى على الخصوص خلال القرن 18م بهذا الفن من التأليف، ودونوا ذلك شعرا ونثرا أوهما معا، وبرعوا فيه سواء فيما يتعلق بالرحلات العلمية أو الرحلات الحجية، وسجلوا خلالها مشاهداتهم وكتبوا عن العلماء الذين اجتمعوا إليهم واخذوا عنهم العلم أو أجازوهم في بعض العلوم، فوصفوا خلقتهم وأخلاقهم، كما سجل هؤلاء الرحالة الأوضاع العامة في البلاد التي زاروها من حيث الوضع الأمني والثقافي والعمراني والحالة الإقتصادية.

أما كتاب: "نيل الإبتهاج بتذييل الديباج"، لصاحبه أبو العباس أحمد بابا التنبكتي[38]، وهو أهم ما كتبه أحمد بابا واشتهر به واحتل مكانا مميزا في قائمة مؤرخي الغرب الإسلامي[39]، وضعه ليكون ذيلا لكتاب: " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب" لأبي اسحاق ابراهيم بن فرحون (ت 799هـ) ويضم 630 ترجمة، وقد كان في ذلك متأثرا ببعض كتاب التراجم مثل الوافي بالوفيات للصفدي، ومدفوعا برغبة شخصية لتخليد رجال المذهب المالكي.

تناول أحمد بابا في ديباجه ما يزيد عن ثمانمائة (802) ترجمة لشخصيات المذهب المالكي، وقد اعتمد في ترتيبهم حسب تاريخ وفاتهم غالبا، ويبدأ أحمد بابا الترجمة من حيث نسبها ونصيبها من العلم فيذكر الكتب التي درسها والرحلات التي قام بها دون أن يهمل تسجيل الأوصاف الخُلقية والخلقية، فهو يقول عن بعض من ترجم له: أنه (..معتدل القامة يلازم الطيلسان على العمامة، و لا يلبس الثياب المصقولة، يلازم بيته، قليل الاجتماع بالناس)[40]، وإن كان له شعر جاء ببعض الأبيات وعلق عليها، ما أسبغ على عرضه حيوية وجعل لكتابه فائدة إجتماعية وثقافية وسياسية، وجاء كتاب الديباج بفضل مادته مصدرا مهما لأعلام المغاربة لا

يمكن تجاوزه، فهو حسب عبد الجليل التميمي،(أساس لدراسة الأعلام الأندلسيين والتونسيين والجزائريين والطرابلسيين)[41].

وضعت عدة مختصرات لكتاب نيل الإبتهاج، منها ما وضعه مؤلفه أحمد بابا بعنوان: "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج"، حوالي سنة (1012هـ وضمنها 704 ترجمة مرتبة أبجديا، وقد أدرج نفسه ضمنها فعرف بحياته وسجل مشيخاته وكتبه[42].

أما أبو القاسم الزياني[43]الملقب ب: "ذي الوزارتين" – الوظيف المخزني والكتابة التاريخة– فقد تناول العديد من التآليف في مواضيع التاريخ والجغرافيا واللغة والفقه، وقد كتب الزياني أغلبها في الفترة التي اعتزل فيها الوظيف وابتعاده عن البلاط الملكي، ما سمح له بإبداء أفكاره الجريئة وملاحظاته الشخصية الصريحة، ويبدو أن بعض مؤلفات الزياني العديدة هي في الواقع ملخصات أو فصول وأقسام مستخرجة من كتبه الرئيسية الثلاث، وهي: " الترجمان المعرب من دول المشرق والمغرب" و" البستان الظريف في دولة أولاد مولانا الشريف" و"الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا و بحرا "، الترجمانة الكبرى هذه تعتبر مصدرا مهما ومرجعا أساسيا يتجاوز كتب الرحالة السابقين من المشارقة والمغاربة نظرا للمعلومات التي احتوت عليها، والتي تتصل خاصة بالجوانب الحضارية والمظاهر الجغرافية والعمرانية وبالواقع السياسي والثقافي الذي تأثر به أبو القاسم الزياني وأبدى حوله ملاحظاته الخاصة التي أشار إليها بقوله:(ولي في كل مقام منها مقال وفي كل روض منها مجال فيما يقتضيه الحال ويخطر على البال، وما يناسب كل خبر ويؤيده ويعتمد عليه ويعضده)[44].

بينما كتاب أبو راس الناصر: "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" قسمه إلى خمسة أبواب، فكان الباب الأول متعلقا بحياة المؤلف ونسبه وسماه "في ابتداء أمري" والباب الثاني في ذكر شيوخه وسماه: "في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي، شريعة وقرآنا، طريقة"، ثم خصص الباب الثالث للحديث عن

رحلته، بعنوان:"في رحلتي في المشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"، بينما كان الباب الرابع خاصا بالمواضيع التي نوقشت في مجالس العلم التي حضرها مع العلماء وسماه: "في الأسئلة وما يتعلق بها".

أما الباب الأخير فهو في تعداد الكتب التي ألفها، مع وصف مختصر لها وعنوانه: "العسجد والإبريز، في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز"[45]، ونلاحظ منهجيته في عرض علل تأليفه في هذه المواضيع عند فاتحة كل باب.

من بين الرحلات النثرية المهمة خلال العهد العثماني القرن الثاني عشر الهجري، رحلة محمد بن الحسين الورثلاني لأهميتها الجغرافية والتاريخية، والتي عنونها ب: " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" [46]، وتعتبر بجدارة إنجاز هام ضمن حركة التأليف التاريخي التي عرفها المغرب الإسلامي خلال العهد العثماني، بحيث تحدث فيها عن خط سير ركب الحج من الجزائر إلى مكة والمدينة، وتوقف عند كل حاضرة من حواضر المسلك وأريافه، وأسهب في الحديث عن المدن المقدسة في الحجاز وعن أحوالها الثقافية والعلمية، كما لفت الانتباه إلى مظاهر اجتماعية وفكرية عرفها عصره مثل، انعدام الأمن وكثرة قطاع الطرق، وانتقاده لأسلوب حكم العثمانيين، كما ناقش قضية شرب التدخين، وسماع الموسيقى، وعقد مقارنة بين الجزائر وتونس في الأحوال الاقتصادية والمعيشة، وأثار قضية عدم اهتمام معاصريه بالتاريخ وبين فضله.

كذلك من بين الرحلات النثرية المهمة والتي تمثل أحد مظاهر التأليف التاريخي رحلة أحمد المقري التلمساني المعرفة بعنوان: "رحلة إلى المشرق والمغرب "، وحرص المقري في تأليفه بذكر المحطات التي زارها أثناء ارتحاله، من مدينة فاس مارا بالجزائر وتونس والإسكندرية الى جدة ليتجه بعدها إلى القدس الشريف رصد أخبار تلك المدن ومسالكها، كما ضمن تأليفه كذلك بجزء كبير عن علاقاته بالعلماء والأدباء الذين التقى بهم[47].

ومن بين الرحلات الشعرية التي كان لها نصيب ضمن تآليف المؤرخين المغربيين، نجد رحلة عبد الرحمان المجاجي الذي دون رحلته إلى الحج، في قصيدة تضم 225 بيتا، حيث تحدث عن ركب الحج وخط سيره، والمواطن التي يمر بها، واهتم بذكر العلماء والصلحاء، في كل من الجزائر وتونس وطرابلس ومصر.[48]

مؤرخ آخر تناول في همزيته رحلته إلى الحج، وهو محمد بن منصور العامري، الذي وصف رحلته من موطنه تازة حتى بلوغه الحرمين الشريفين، والتي بدأها بقوله:

أزمع السير إن دهت أدواء لشفيع الأنام فهو الدواء[49]

من العادة أن معظم الرحلات المسجلة والتي تناولها العلماء والمؤرخون، أن نطلق عليها "رحلات أفقية" التي كانت من الغرب إلى الشرق أو العكس، بينما في العهود الأخيرة من العصر الحديث، برزت من خلال الرحلات السفارية والدبلوماسية، نوع آخر من الرحلات أو ما قد نسميه بـ"الرحلات العمودية" من المشرق أو المغرب نحو أوربا أو إلى إفريقيا، كرحلتي محمد التونسي إلى بلاد السودان، ورحلة بيرم الخامس إلى أوربا.

إن رحلة محمد بن عمر التونسي[50] المسماة: "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"، تناول فيها مجمل الملاحظات وما رآه خلال رحلته إلى إفريقيا الوسطى وبلاد دارفور بالسودان، وقد اشتهر في أوربا بسبب رحلته هذه.

أما محمد بن حسين بيرم الخامس، وكتابه: "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" [51]، الذي ألف رحلة في غير العادة إلى المشرق فحسب، بل جعلها رحلة عامة إلى أوربا ومصر والشام والحجاز وغيرها، كما عرف فيه بكثير من الأقطار في الشرق والغرب والممالك السائدة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وصف جغرافيتها، وهو بمثابة موسوعة تاريخية وجغرافية شاملة معرفا فيه بالصنائع والمعارف والعمران الغربي الحديث.

3- دوافع التأليف التاريخي:

إن الإنتاج التاريخي المغاربي خلال العهد العثماني في الجزائر وتونس وخلال العهد السعدي والعلوي في المغرب الأقصى، كان في جملته عبارة نسخ وتقليد لما كتبه المؤلفون والمؤرخون السابقين، بحيث كانوا يجمعون الأخبار مشاهدة أو سماعا، ويدونونها بطريقة تقليدية، دون تحليل أو تمحيص، بغض النظر عن الدوافع الخاصة لكتابتها، والتي اختلف من مؤلف لآخر إلا أن معظم الكتابات كانت بدافع تلبية رغبة رجال السلطة لتخليد مآثرهم، أو الكتابة لغرض التقرب منهم ونيل المكانة والحظوة لديهم .

إن القلة القليلة من أصحاب السلطة فيها، سعوا لبعث حركة التجديد والتعليم وتشجيع حركة التأليف العلمي والتاريخي، وهنا لابد أن نشير إلى بعضهم، ومن هؤلاء الباي محمد الكبير باعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري [52] فاتسع بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة ، وشرهت لها النفوس، وكثر طلبة العلم، وتشوف كل أحد للتدريس، واشتد الحرص على العلم، بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه ... [53]، الذي أنشأ المعاهد وأقام المدارس، التي لعبت في عهده الدور الرئيسي في التعليم والتدريس، وقد كان من أشهرها المدرسة المحمدية، هذه المدرسة كانت مجهزة بكافة الوسائل التعليمية والتثقيفية، من كتب الى قاعات مطالعة وغيرها، وعمل الباي على تعيين الأساتذة الأكفاء بها، وأقبل عليها الطلبة بلهف شديد ، وهذه الدراسة ذات نظام داخلي وخارجي، وكانت تضم المرافق الأخرى الضرورية، وقد تناول المؤرخ أبو راس الناصري موضوع هذه المدرسة حيث قال:(... المدرسة المتعارفة عندنا الآن وهي التي تبنى لدراسة العلم ..كالمدرسة البوعنانية بفاس ..والمدرسة المستنصرية والبياشية بتونس والقشاشية في الجزائر)[54]، وتعدت هذه الحركة مدنا أخرى بإقليم البايلك.

كما أهتم الكتاب في عهد الباي محمد الكبير، بتدوين الأحداث التاريخية، خاصة التأريخ لمدينة وهران ولبايلك الغرب عامة، وأصبحت الحياة الثقافية حافلة بقدر غير قليل من مصادر التاريخ الإقليمي، وذلك بسبب إجزال العطاء للمؤرخين للتأليف التاريخي، بحيث لما كان يحاصر محمد الكبير مدينة وهران وهي يومئذ تحت الاحتلال الإسباني، أمر أحد المؤرخين وهو المصطفى بن عبد الله بن زرفة، بتدوين الأحداث التاريخية المتعلقة بالجهاد، فكان من نتاج تلك الحركة مؤلفه " الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية"[55]، وكان بعض الكتاب يتقربون إلى الباي محمد الكبير بالتأريخ لعهده [56].

لقد شغل أحمد بن هطال التلمساني عدة مناصب سياسية في بايلك الغرب، وكان مستشارا للباي وكاتبه الخاص، ورافقه في رحلته التي سجل أحداثها عام 1785م في مؤلفه: "رحلة محمد الكبير الى الجنوب الصحراوي"، وكان دافعه في ذلك خدمة الباي، من خلال قوله: (أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها قامع المبغضين، مدوخ المارقين، من جعل الله له خصال الشرف والمجد...)[57]، كما أمر كذلك محمد بن رقية التلمساني[58]، بالكتابة عن الحملة التي شنتها اسبانيا على الجزائر سنة 1775م، المشهورة بحملة (أورياللي)فتناولها هذا المؤرخ في تأليفه المعروف بعنوان: " الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة "[59]. كذلك ابن سحنون الراشدي، كتب مؤلفه: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، هو الآخر تخليدا لمآثر الباي محمد الكبير وإشادة بمكانته و حبه للعلم والعلماء، ويقول في ذلك: (...الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ... قصدت بذلك تخليد مآثره ، وتدوين بعض محامده ومغافره ، فقد أسدى للإسلام يدا بيضاء توجب له الإحسان من كل إنسان، وتقضي له الشكر من الأخيار وتعيب من عاب مادحه بالإشتغال بذكر محاسنه ... وكيف يعاب من مدحه، وقد سميت هذا الصوان المحتوي على لبابه المليح المشتمل بثيابه: " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني "[60].

أما أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي، صاحب كتاب: "الشهاب إلى لقاء الأحباب "[61]، يقول أن دافعه في ذلك، هو طلب الشيخ زين بن الشيخ الأجهوري[62]، الذي تتناوله في ثلاثة عشر بابا، بدأه بذكر ما جرى له في غرناطة بشأن الكتب العربية التي عثر عليها، وأنهاه بسرد مناظرته مع أحد الرهبان بمصر، وما أنعم الله به عليه في بلاد الأندلس وغيرها[63].

أما عبد العزيز الفشتالي مؤرخ الدولة السعدية، وصاحب كتاب:" مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا "[64]، فإن دافعه في ذلك هو تلبية لطلب السلطان أحمد المنصور الذهبي (1578–1603)، بعد ما بلغ مسامع السلطان أن أحد علماء الشرق الإسلامي، وقد يكون القاضي محمد بن الحسن بن سنان بن أحمد الجنابي قاضي حلب وصاحب كتاب "العيلم الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر"[65]، تأليف تاريخي وجد فيه المنصور أخطاء ومغالطات تاريخية، دفعته لتكليف القشتالي بتدوين تاريخ الدولة السعدية، وإلى التعجيل بالكتابة إلى العالم المذكور لينبه إلى الأخطاء التي تضمنها مؤلفه السابق، ويقول في ذلك المنصور:... وعلمنا كذلك أن هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم رأسا حقائقها واشتبهت على علمكم طرائقها وعذركم في ذلك واضح لتنائي الديار وبعد الآفاق والأقطار. [66]

أما سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني، في قصيدته النونية الشهيرة: "الأعلام فيما وقع للإسلام من قبل الترك في تلمسان"، فان دافعه في نظمها، هو معارضته لتصرفات قائد تلمسان التركي ونقمته على قسوة الحامية العسكرية التركية واستبداده بالسكان، وجاء فيها:

وأكبر شيء أفسدته أكفهم تلمسان عين الغرب علما و إيمانا

على نهب أموال اليتامى تظاهروا وكانت لهم على المدينة أذانا[67]

كذلك أبو عبد الله محمد بن أبي دينار القيرواني، صاحب تصنيف: "تخلص ذوي المودة والصفا بختم أواخر الشفا"، وضعه نزولا عند رغبة وطلب (من يكن له

الاحترام و التقدير)، وكذاك كتاب: " هداية المتعلم"[68] حسب ما جاء على لسانه، إلا أن المؤرخ التونسي إبن أبي دينار[69] اشتهر بكتابه: "المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس"، فإن دافعه في كتابته، هو التعريف بماضي تونس تخليد ذكراه بعد موته، وهذا ما أشار إليه إبن أبي دينار بقوله:(...إلا أن مدينتنا الخضراء العلية وعروس البلاد الإفريقية تونس حرسها الله تعالى لم يتقيد لجمع أخبارها مصنف... وقد كنت أتمنى أن أجد من فيه نباهة ليجمع ما حدث في زماننا من الوقائع العجيبة... وقد تشوقت الى هذا الجمع بنفسي وملت إليه بحسي وحدسي إلى أن قدر الله علي بفرقة الأحباب وموت الأولاد، فكان هو هذا الباعث لي في هذا التقييد ..).[70]

أما مواطنه صاحب "الحلل السندسية في الأخبار التونسية"، محمد بن مصطفى المعروف بالوزير السراج[71] ، فيبين دوافع كتابة مصنفه كالتالي:(.. أردت أن أولف في هذا القطر الإفريقي كتابا محيطا بحقيقته ومن كانت له فيه دوله، مبينا لفضلاء ملوكه من ذوي الهيبة والصولة... و لعلماء كل دوله وما احتوت عليه من السادات الأخيار ذاكرا لعلومهم ومصنفاتهم مبينا لتاريخ ولادتهم ووفاتهم ...)[72].

تبدو أغراض ومساعي بعض المؤرخين المغاربيين من وراء تآليفهم كابن العنابي؛ تستحق كل ثناء وتنويه؛ كونها بعيدة عن أي غرض دنيوي أو مادي أو أن تكون له علاقة بحظوظ النفس والهوى ..، حيث كان همّهم في ذلك خدمة الإسلام والمسلمين؛ وواجب نصح الأمة وإصلاحها والدفع بها إلى مراتب القوة وتحقيق المنعة العسكرية والسياسية والاقتصادية حتى تكون في منأى من الأمراض والتصدعات الداخلية والأطماع الخارجية، أو الكتابة والتأليف لغرض خدمة التاريخ والعلم في حد ذاته.

فكتب ابن العنابي في كتابه: "السعي المحمود في نظام الجنود"، أن لدافع من وراء ذلك، يتجاوز الطموحات الشخصية والمحلية، إلى طموحات خدمة الأمة الإسلامية ومستقبلها، وهذا الدافع هو سعيه في تبيان جواز، بل وجوب، تعلم

الحضارة من الأوربيين، في ظل تكالب الدول الكبرى على تركة الخلافة العثمانية، من بينها بلاده الجزائر[73].

من جهة أخرى نجد أبو عبد الله محمد بن الحاج الوفراني، مؤلف كتاب: "الظل الوريف في مفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف" [74]، الذي عمل بالمخزن السلطاني، ببلاط السلطان مولاي إسماعيل حيث عرف بمقدرته وبراعته في الكتابة، فكلفه السلطان بوضع تاريخ لدولته حسبما أشار إلى ذلك في كتابه "الظل الوريف"[75].

أما أبو القاسم بن أحمد الزياني، مؤلف كتاب: "البستان الظريف في دولة أولاد مولانا الشريف .."[76] الذي تعرض فيه لتاريخ الدولة العلوية على الأخص، وقد كان الهدف من وراء تأليفه هذا التعبير عن إخلاصه للبيت العلوي وولائه للسلاطين الذين عمل في بلاطهم[77].

ابن المفتي في تقييداته يرى أن مما دفعه لتأليف هذا الكتاب "تاريخ باشوات وعلماء جزائر الغرب"[78]، هو تدارك النقص الملحوظ في التأريخ لمدينة الجزائر وأخبار علمائها، إذ أن أغلب ما كتب في هذا الموضوع ظل غير مقتبس أي لم ينقله الكتاب ليحفظوه من الضياع، كما أن المؤلف قد أراد أن يتسلى بكتابة هذا الكتاب بعد أن فقد أولاده وأصابه الحزن، ويقول في ذلك :... وبعد فعلم التاريخ عبادة ومنة جزيلة، ومعرفة أخبار العلماء منقبة جليلة، وإن تلك الأخبار رسمها بالجزائر مندرس، وما كتبه ذوو الرحلة في شأنها وشأن رجال العلم فيها غير مقتبس. ومما حملني على التقييد وإن كنت لست من فريق المؤلفين ولا من عدادهم هو التسلي عن الهموم بعد فقد الأنجال والأولاد، فوقع لي العزم على ما نويت وأطلب من الله الإعانة، وأن يجعلني ممن ثابر على فعل الجميل فإنه خير مسؤول)[79]، أما كتاب: " البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "[80]، لأبي عبد الله محمد بن مريم المديوني[81]، بين في مقدمة كتابه أن هدف تأليفه له هو كان استجابة لشخص كان يحظى لديه بالتقدير، وسعيا

لكسب الثواب ونيل الأجر في الآخرة، وذلك بتعريفه للعلماء والأولياء الصالحين بتلمسان، وذكر محاسنهم وأفضالهم، وهذا من خلال كلامه: (..الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين ... فقد اطلعت على ما أشرتم به علي من ذلك التأليف الأبرك المتضمن جمع أولياء تلمسان فأسعفتكم فيما طلبتم ... والذي ألهمتم إليه أيها الأخ من أفضل ما يبذل فيه العمر كله ... إذا كان مجرد حب الأولياء ولاية تشبث أن المرء مع من أحب فكيف بمن زاد على مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه، وخدمتهم ظاهرا وباطنا بتسطير أحوالهم ونشر محاسنهم في أقوالهم، وأفعالهم وأحوالهم نشرا يبقى على مر الزمان... للإقتداء بهم بحسب الإمكان...)[82].

مؤلف آخر ساق لنا هدف تأليفه ويبدو أنه لغرض الإصلاح واستنكار البدع والخرافات التي انتشرت في عصره، من خلال كتابه: "منشور الهداية.."، حيث يقول الفكون في ذلك: (الحمد لله الذي فتح لنا بصائر أوليائه بأنوار الهداية، ونشر عليهم ألوية القبول لما سبقت لهم سابقة العناية، وأقامهم بين عباده لردع من جلب عليه الشيطان بحبل الغواية، ... وتلك سيرته سبحانه ما أظهر بدعيا إلا طمس وجوده بشهاب حجج أهل المعرفة والدراية ... من جعلهم شمسا يستضيء بنورها أهل الغباوة والعماية .. هذا الجهاد الذي هو أحد من السيف في نحور أعداء الله ناهيك بهم أعداء ... فعظم الباعث بهذا التقييد ..فالبر بتأليفه أردت وإرشاد الأمة ونصحها قصدت ...)[83].

أما محمد بن محمد الشوثري العياضي[84]، صاحب كتاب:"مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر"، يتضمن التعريف بعلماء الفترة الباشية في تونس، بدافع التقرب لعلي باشا والدعاية له وتمجيده وتخليد ذكراه [85].

كذلك المؤرخ محمد الباجي بن محمد المسعودي[87] ، صاحب كتاب : " الخلاصة النقية، في أمراء إفريقية"، وهو مختصر في تاريخ البلاد التونسية، بدءا من

الفتح الإسلامي إلى أيام الباي أحمد (1837–1855)، هو الآخر كسابقه ألف هذا الكتاب للتعريف بتاريخ تونس ، ونيل الحظوة عند الباي ، حيث ترقى الى رئاسة القسم الثاني من الوزارة الكبرى[88].

أما صاحب مخطوط: "كعبة الطائفين، وبهجة العاكفين، في الكلام على قصيدة حزب العارفين"، قصيدة نظمها الشيخ موسى بن علي بن موسى الملالتي[89]، إلا أن شرحها كان من تلميذه وهو الشيخ محمد بن سليمان[90]، الذي أجلّ أهمية التأليف وبين دافعه في الكتابة بقوله: (.. قلت لو لم يكن في كتبنا لهذا التقييد ... إلا هذا الكلام الموصل إلى معرفة الواحد الحق، لكان كافيا لذوي الهمم، فكيف ينبغي لعاقل أن يزهد في مطالعة الكتب المشحونة بكل العلوم النافعة بعد أن أتته عفوا صفوا ولم يدر المسكين ما نال مؤلفيها من التعب في جمع دررها المنثورة من معادنها واستخراج كنوزها المكنونة من خزائنها و ليتهم مع هذا وجدوا زمانا هنيا، أو مساعدا مرضيا، أو خلا وفيا، بل لم نجد نحن في هذا الأخير من القرن الحادي عشر إلا العقارب واللفاع، والشقاق والنزاع، وظهور الهمج الرعاع، المؤثرين سبل الشر والإبتداع ... ولا يجمل بالعاجز الضعيف المتألم، إلا أن يبتهل ويقول اللهم سلم اللهم سلم)[90].

ولا تختلف دوافع المؤرخين كثيرا من حيث مواضيع تآليفهم، فأصحاب الرحلات مثل العياشي[91] والورثلاني وابن عمار[92] وأبي راس ... بعد احتكاكهم بالمغاربة والمشارقة تقاربت رآهم الفكرية والسياسية ... وبالتالي التدوين في قضايا وهموم الأمة، والحركة العلمية التي يشهدها المشرق، كما سجل العياشي ما شاهده أثناء سفره نحو الحجاز في رحلته: "ماء الموائد" في وصف دقيق لطريق الحج المغربي ومحطاته ومنازله، وقدم عرضا شاملا عن الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية للأقاليم التي مر بها أو توقف عندها، ووصل حتى وقف على معالم بيت المقدس التي ذكرها بقوله: (وبالجملة فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما حولها من المزارات شيء كثير)[93]، كما تعرف على شيوخ غزة وذكرهم بأسمائهم.

ومن جهة أخرى كانت تونس معبرا ومدرسة لبعض الجزائريين، وكذلك العكس، فهم يتصلون بعلمائها ويتبادلون معهم التآليف والإجازات ونحو ذلك. ومن هؤلاء أحمد بن عمار الذي حل بها سنة 1195هـ، ألف كتابا في تاريخ علي باي وعلق على بعض أعمال تلميذه إبراهيم السيالة[94]، وكذلك فعل صاحب كتاب: "السعي المحمود في نظام الجنود" ابن العنابي[95] الذي تبادل الكتب والشعر مع علماء تونس، وخصوصا محمد بيرم سنة 1245هـ، وقد ذكر أحمد البوني شيوخه من التونسيين في إجازته، وأخبر أبو راس عن العلماء الذين لقيهم بتونس أثناء حجتيه، وكذلك فعل الورثلاني كما ورد على الجزائر عدد من علماء تونس ومعهم مكتباتهم وتآليفهم ورسائلهم، فكان التواصل والإحتكاك العلماء بعضهم ببعض عامل ودافع قوي في تآليفهم، يقول الدكتور سعد الله في ذلك:(... وأوحت مصر والحجاز وسورية والعراق وإستانبول إلى عيسى الثعالبي وأحمد المقري ويحي الشاوي بالتأليف، ولولا الرحلة في طلب العلم والحج لما نشطت همم هؤلاء العلماء للتأليف وتغدية المكتبات بإنتاجهم ...)[96].

من خلال تناولنا لبحث حركة التأليف التاريخي في الجزائر و تونس والمغرب خلال العهد العثماني، تبين لنا أخيرا مجموعة استنتاجات، والتي تمثل بمجموعها خصائص طبعت الحركية الثقافية بشكل عام، والإنتاج التاريخي بالخصوص، صححت الكثير من المفاهيم الضيقة أو الخاطئة حتى، وأهم تلك الاستنتاجات ما يلي:

– إن التأليف التاريخي في العهد العثماني كان زاخرا ومتنوعا – إذا اعتمدنا قاعدة التعميم – فشملت كتب التراجم والسير والرحلات والأخبار، في شكل النثر والنظم.

– سعي المؤرخين المغاربيين إلى جمع الأخبار بالرجوع إلى الوثائق الأصلية المدونة منها والمروية، مع الحرص على ذكر مصادرها عملا بقاعدة السند والمتن.

– التنوع في طرق تدوين الأخبار، فجمع المؤرخ المغاربي بين الأخبار السياسية والحوادث العامة، ووصف الحركة الدينية الصوفية والحرص على ذكر مشيختها.

– تضارب علاقة المؤرخين المغاربيين بالسلطة أو الأسر الحاكمة، فمنهم من ساندها وكان كلسان حالها، ويذود عنها بقلمه كالفشتالي وإبن القاضي، ومحمد بن ميمون الجزائري وابن زرفة، ومحمد بن سلامة وابن العنابي، وآخرين محايدين أو معارضين لها كابن أبي الضياف، وأحمد المقري وعبد الرزاق بن حمادوش والباجي المسعودي والعياشي والمنداسي.

– شمولية أو موسوعية المعارف التاريخية، التي تتناول الأخبار و التراجم المحلية القريبة، أو الأخبار المشرقية – أدبيات الرحلة الحجازية — أو حتى الأخبار الأوربية.

– تعدد أغراض التأليف التاريخي عند المؤرخين المغاربيين، إما أنه يؤلف لأن ذلك يدخل ضمن مهامه ككاتب لدى السلطة أو من أجل التقرب لدى السلطان، أو لأجل الحصول على إجازة، أو لأجل تخليد مآثر العلماء والشيوخ وأخبارهم وتصانيفهم للإقتداء بآثارهم وإقتفاء سنتهم، أو لغرض تقديم النصح للأمة ..

– محاولة بعض المؤرخين المغاربيين تعليل بعض الأحداث التاريخية بالوقوف على أسبابها ونتائجها، وعدم الاقتصار على السرد والحشو.

– التمازج الحضاري والتأثير والتأثر فيما بين الدول المغاربية، من خلال ما تجسد بوجود عدد هام من العلماء المغاربيين الذين تنقلوا بين الجزائر وتونس والمغرب، وأقاموا في أكثر من بلد مغاربي، ومنخرطين بشكل بارز في حركة التأليف التاريخي المغاربي بشتى أنواع من التصانيف، منهم عبد الرزاق بن حمادوش، والشيخ علي الأنصاري، والشيخ أبو القاسم الزياني، والشيخ سعيد قدورة والشيخ محمد بن علي الخروبي وأحمد بن عمار، واقتباس قوافي بعضهم من بعض فيما يخص عناوين بعض تصانيفهم، على سبيل المثال لا الحصر نجد محمود مقيدش (ت 1813)،صاحب كتاب "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار"، مشابه تماما لكتاب الشيخ الحسين الورثلاني الذي سماه: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

– توجيه مؤرخي المغرب الإسلامي عنايتهم بشكل بارز للمظاهر الحضارية والتحولات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية مما سيؤثر بشكل هام على حركية التأليف التاريخي خاصة في مطلع العصور الحديثة ، و كذا خلال عصر النهضة في تونس.

– استعانة هؤلاء المؤرخين–جلهم على الأقل–بالمقاطع الشعرية، واعتماد الجمل القصيرة والقوية، وتوظيف أساليب البيان والبديع، مع الإكثار من السجع والمحسنات الأخرى، كل ذلك يعكس جانب من أسلوب الكتابة التقليدية خاصة عند الأدباء المؤرخين أو العكس.

– غلبة المنهج الوصفي على هؤلاء المؤرخين باعتماد العربية الفصحى المشوبة أحيانا ببعض التعابير الأعجمية أو الدارجة المحلية.

– شيوع علم الدين والتصوف في عموم المغرب الإسلامي بشكل ملفت للانتباه، بينما العلوم العقلية كانت قليلة وثانوية عند الكثيرين من العلماء..

– التخلف العلمي الذي ساد الغرب الإسلامي كما الحال في شرقه، لا يجعلنا كما قال الدكتور سعد الله نثور على ماضينا أو نتنكر لتراث الأجداد، بل إن ذلك يجعلنا نتحفز أكثر فأكثر، لنعرف أولا من نحن في ازدهارنا وفي تخلفنا، ثم لنعرف من نكون في المستقبل .

– الهوامش البحث:

1– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500– 1830م، ج1، ط خاصة، دار البصائر، الجزائر 2007، ص–ص،19– 20.

2– رقية، شارف، الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م و بداية القرن 19م، دراسة تحليلية نقدية، ودار الملكية .ط1. الجزائر 2007م. ص، ص 50

3– المرجع نفسه، ص، 221 .

4- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ط1. دار الغرب الإسلامي، بيروت1998م .ص 313 .

5- أبو العباس أحمد، المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، 1988م، ص 323.

6- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم المؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة 1،1999، ص 335.

7- المرجع نفسه، ص 446.

8- أبو القاسم، سعد الله، المفتي الجزائري- المصري ابن العنابي كتابه "السعي المحمود في نظام الجنود"، مجلة الأصالة، ع :31، وزارة الثقافة، ارس 1976، ص-ص 38 ،39.

9- المرجع نفسه، ص-ص، 39- 40.

10- أبو القاسم، سعد الله، الحملة الفرنسية على مصر والشام في رأي المؤرخ أبي راس الجزائري، المجلة التاريخية المغربية، العدد 21- 22، أفريل 1981، ص- ص، 42-43.

11- المرجع نفسه، ص 45.

12-هو محمد بن مصطفى بن محمد بن حسين بيرم الخامس، من بيت علم ووجاهة، ولد بتونس سنة 1840، وتلقى تعليمه بجامع الزيتونة، وكان أبوه وعمه من كبار علمائه، وبعد تخرجه تولى التدريس، وكان محبا للحرية والدعوة لإصلاح أساليب الحكم، وتأسيس نظم شورية تقوم على أسس إسلامية، فكان لسان حال الجماعة الداعية إلى ذلك وترجمانها، وشارك في الحكم وتولى المناصب المهمة، مثل رئاسة جمعية الأوقاف وطبعة الدولة التونسية، وكانت له سياحات وجولات في مختلف بلدان أوربا والشرق، واتصل برجال السياسة في فرنسا واستانبول، ولما عرف بنية فرنسا في ضم تونس، عزم على الهجرة وقصد أداء فريضة الحج، فزار مصر والحرمين وقصد الشام واستانبول وأكرمته الدولة العثمانية واستشارته فيما يهم اصلاح المسلمين، ثم استقر بمصر وأسس جريدة سماها: (الإعلام بحوادث الأيام ونصائح الأنام بعلوم الإسلام ، ومقتضى المقام، علمي وسياسي)، صدر العدد الأول في25 جانفي 1885م كأسس لها طبعة سماها: (الطبعة الإعلامية)، لكنه توفي بحلوان سنة 1899م، من مؤلفاته: "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"، وهو عبارة عن رحلة عامة في أوربا ومصر والشام والحجاز وغيرها، وذكر فيها حقائق عامة عن بلاد المغرب وتونس والجزائر. ينظر: حسن حسني، عبد الوهاب، كتاب العمر: في

المصنفات والمؤلفين التونسيين، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، لبنان..الطبعة الأولى، 2005م، ص– ص ، 572- 573.

12- المرجع نفسه، ص 576.

14- خير الدين التونسي أصله مملوك جركسي، جيء به إلى تونس صغيرا حوالي 1842م، وتربى في قصور البايات بتونس، وأخذ نصيبا من المعارف العسكرية، كما حصل مشاركة حسنة في جوانب من الثقافة العربية الإسلامية، وترقى في الرتب العسكرية حتى بلغ أعلاها، وتولى المهمات الكبيرة لدى مختلف الدول الأوربية، وناب عن الدولة التونسية في القضايا العويصة وكان مبعوثها لدى الخلافة العثمانية ، وحقق في كل ما أوكل إليه نجاحا نال إعجاب مرؤوسيه، وكان من الداعين إلى إصلاح نظم الحكم في العالم الإسلامي بإحياء وبعث مبادئ العدل والشورى التي جاءت بها الشريعة الإسلامية واقتباس ما يتلاءم معها من نظم عصرية، وكانت له مدة توليه الوزارة الكبرى في تونس إصلاحات هامة في مجالات الإدارة والتعليم والقضاء والمالية والصناعة والفلاحة والتجارة، كما كانت له عند تقلده منصب الصدارة العظمى في استانبول جهود مشكورة في الدب عن أطراف الدولة العثمانية والحفاظ على ممتلكاتها، ليتوفي في استانبول سنة 1890م، له كتاب: " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وحرص خير الدين على نشر أفكاره الواردة في مقدمة الكتاب وبذل جهده لترجمتها إلى لغات كالفرنسية والإنجليزية والفارسية. ينظر: نفس المرجع السابق، ص – ص، 577- 578 .

15- أبو القاسم، سعد الله، أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر، ج 4، ط خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص163.

16- المرجع نفسه، ص 164.

17- نفسه، ص 164.

18- نفسه، ص 168.

19- نفسه، ص 168.

[20]- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500- 1830م، مرجع سابق، ج 1، ص 138.

21- رقية، شارف، مرجع سابق، ص 184.

22- هو أبو عبد الله محمد بن ميمون الجزائري، ولد بمدينة الجزائر من عائلة اشتهرت بالعلم، وتعلم على يد العديد من علماء مدينة الجزائر كعبد الله محمد الشغيري، وقد ذكره عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته: " لسان المقال ..."، وصفه عبد الرحمان الجامعي بـ (الأديب الأريب)، تولى محمد بن ميمون خطة قضاء الجزائر لفترة زمنية على عهد الداي محمد بكداش (1707-1710م)، اعتزل الوظيف وتفرغ للتأليف ونظم الشعر، اشتهر بن ميمون بتأليفه سيرة الداي محمد بكداش التي وضع لها عنوانا "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية،" والتي كانت مثار اهتمام وتقدير معاصريه. حتى انقطعت أخباره سنة 1747م. ينظر: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص 398، وينظر أيضا: أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب. بدون طبعة ولا تاريخ، ص 461.

23- محمد بن ميمون، الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط، خاصة، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م، ص 131.

24- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق ج 2، ص 337.

25- المرجع نفسه، ص 114.

26- محمد، سي يوسف، "دراسة مخطوطة عجائب الأسفار لأبي راس الناصر"، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع: 2، 1986، ص 143.

27- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 2، 342.

28- حسن حسني، عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين ...، مرجع سابق، ص 570.

29- أبو العباس أحمد، المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، 1988م، ج 1، ص 324.

30- ابو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج.2، ص352

31- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم، م، و، ك، الجزائر، ط. 1، 1990، ص 180.

32- ينظر: عبد الكريم بن الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت – لبنان، 1987. ص 11.

33- ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص 356 .

34- أبو القاسم، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تح: محمد عبد الرؤوف القاسمي الحسيني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. وحدة الرغاية. الجزائر 1991، ج 1، ص 143.

35- زبيدة، خليفي، التأليف التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، تحت اشراف، الاستاد : أحميدة عميراوي. الجزائر 2005م، ص 49.

36- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 2، ص 361

37- ينظر: أبو العباس أحمد المقري، نفح الطيب ...، مصدر سابق، ج 1.

38- هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن يحي الصنهاجي الماسيني التكروري التنبكتي، ولد بالقرب من مدينة تمبكتو عام 1555م، تلقى تعليه بمدينة تمبكتو وتعلم عن شيوخها ثم استزاد من العلماء الذين لقيهم بالمشرق ومراكش، ويعد أحمد بابا من جملة العلماء المشاركين في العلم والموثوقين في الرواية، ولما استولى السلطان أحمد المنصور السعدي على السودان الغربي كان أحمد بابا ضمن المعتقلين مع جملة أعيان تمبكتو سنة 1002هـ، واستولى جنود المنصور على حوالي 1600 مجلد من كتب أحمد بابا الذي أخد إلى مراكش مع حوالى سبعين نفرا من الرجال والنساء والأطفال، فانقطع أحمد بابا للعبادة والعلم في مراكش مدة عشرين سنة في إقامة جبرية، وألف خلالها تسعة وعشرين كتابا، أهمها: "نيل الإبتهاج بتذييل الديباج"، أشتهر به أحمد بابا كأحد أهم مؤرخي الغرب الإسلامي، وتوفي سنة 1627. ينظر: أحد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد بن عبد الله الهرامة، ط1، ج2.1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.1989. ص-ص، 11، 14، ينظر كذلك: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص—ص، 318- 319.

39- ناصر الدين، سعيدوني، المرجع نفسه، ص 318.

40- المرجع نفسه، ص 322.

41- نفسه، ص 323.

42- نفسه، ص 323

43- هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي الزياني، نسبة إلى قبيلة زيان الصنهاجية بنواحي فاس، ولد بفاس سنة 1734م، وتلقى تعليمه على يد شيوخ جامع القرويين، وبعد أن أنهى تعليه، اتصل بالبلاط الملكي وعمره ثلاث وعشرون سنة، وخدم السلطان مولاي محمد بن عبد الله (1757- 1790)، ومولاي اليزيد بن محمد (1790- 1792م)، ومولاي سليمان بن محمد (1792- 1822م)، فكلفه بالكتابة، كما أسندت إليه عدة سفارات وأوامر سلطانية، وأشرف على شؤون عدة أقاليم ومدن المغرب، كتوليه قيادة وجدة وتازة ومكناس وطنجة ومنطقة تافيلالت، كما قام بعدة رحلات إلى بلدان المشرق، إلا أنه تعرض للمضايقات والعزل والمصادرة والسجن في عهد مولاي اليزيد، وهذا ما دفعه إلى اعتزال الوظيف والتفرغ للتأليف، فهاجر إلى تلمسان للإقامة فيها، ثم تحول إلى فاس حيث وافته المنية عام 1833م. ينظر: ناصر الين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص-ص، 476- 477 – 478.

44- المرجع نفسه، ص 480.

45- ينظر: أبو راس، الناصري: فتح الإله ومنته ...، مصدر سابق. ص، 179.

46- أبو القاسم، سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج.1، ط. خاصة، دار البصائر، الجزائر،2007، ص ص، 188- 189 - 190

47- ينظر: أبو العباس أحمد المقري، رحلة إلى المشرق والمغرب، خ. م، و، لج، رق 3191.

48- ينظر: عبد الرحان المجاجي، الرحلة المجاجية، مخ، و، لج. رقم 1565.

49- عبد السلام بن سودة، المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، ج. 2، ط.2، المغرب، 1960، ص 433.

50- هو محمد بن عمر التونسي، ولد بتونس عام 1790م، وقرأ بالزيتونة ثم دخل الأزهر وعكف على تحصيل العلم، ثم التحق بوالده في حاشية سلطان دارفور بالسودان، ثم عاد إلى تونس، ثم عاد وعمل بمصر مصححا لما طبع من الكتب وإدخال المصطلحات الطبيعية والعلمية، وله كتاب آخر سماه: "الشذور الذهبية، في الألفاظ الطبية"، وتوفي عام 1858م.

51- ينظر: محمد بن حسين، بيرم الخامس، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط.1، المطبعة الإعلامية، مصر، 1303هـ.

52- ينظر: صالح، فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، ع: 71، وزارة الثقافة، الجزائر، سبتمبر، اكتوبر 1982م.

53- أحمد، الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، قسنطينة 1973، ص 135.

54- أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخ: بالمكتبة الوطنية، رقم: 1632 ص 90.

55- أحمد، الراشدي، المصدر نفسه، ص 146.

56- صالح، فركوس، المرجع نفسه، ص 22.

57- أحمد بن، هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، ط.1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1969م، ص 25.

58- هو محمد بن عبد الرحمان بن الجيلالي بن رقية الجديري التلمساني، لا يعرف شيئا عن حياته سوى أنه عاش في نهاية القرن 12هـ وتوفي سنة 1194هـ، كان يعتبر أن العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية، زيادة إلى محبته للباي محمد. ينظر: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، ص 425.

59- محمد بن رقية، الجديري، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخ، م، و، لج، رقم 2523.

60- أحمد بن سحنون، الراشدي، مصدر سابق، ص 93.

61- ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص 347.

62- هو علي بن محمد المدعو الشيخ الأجهوري، أحد فقهاء الأزهر الشريف خلال القرن 17م.

63- المرجع نفسه، ص 348.

64- عبد العزيز، الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، مخ، ق، م، الرباط، المغرب، رقم: 274- 5182. تحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤن الإسلامية، ط1، الرباط، 1972.

65- المصدر نفسه، تح: عبد الكريم كريم، ط.1، الرباط، 1972م، ص 3.

66- نفسه، ص 3.

67- ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص 371.

68- المرجع السابق، ص 383.

69- هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار القيرواني، عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، تلقى تعليه بالقيروان ثم تونس، فأخذ، ثم تولى القضاء بسوسة والقيروان، اشتهر بعلمه الغزير واطلاعه الواسع، إلى أن توفي سنة 1698م. ينظر: عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة ...، مرجع سابق، ص 190، وينظر أيضا: ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 383.

70- محمد بن أبي دينار، القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط 1، الطبعة التونسية، 1286هـ. ص 4.

71- هو محمد بن مصطفى، الوزير السراج، من عائلة أندلسية الأصل كما يدل عليه أحد ألقابه، هاجرت إلى تونس، و كان لها ذكر في الدور الأخير من تاريخ غرناطة، ولد بتونس سنة 1660م، وتعلم على شيوخه كسعيد الشريف ومحمد الحجيج وعلي الغماد، ولما تخرج عمل مدرسا بالحاضرة ثم انتقل إلى جامع الزيتونة وبرزت براعته في الكتابة والتحرير، فأدناه الباي حسين بن علي وأصبح من جلاسه، ولاه الإشراف على جرايات المدرسين بجامع الزيتونة، كما عهد أليه بكتابة سيرته وتسجيل إنجازاته ضمن التاريخ التونسي السياسي والثقافي، ومن أهم مؤلفات السراج كتابه الشهير: "الحلل السندسية في الأخبار التونسية" وكتاب: "اختصار السيرة الشامية"، وتوفي السراج سنة 1736م. ينظر: كتاب العمر: في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ص 521.

72- محمد بن مصطفى الأندلسي، الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ط 1، مطبعة الدولة التونسية 1287ص 5

73- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري – المصري ابن العنابي وكتابه "السعي المحمود في نظام الجنود"، مجلة الأصالة، وزارة الثقافة، الجزائر، ع: 31، مارس 1976، ص 57.

74- ناصر الدين، سعيدوني، المرجع السابق، ص 389.

75- ناصر الدين، سعيدوني، نفسه، ص 390.

76- نفسه، ص 477.

77- نفسه، ص 477.

78- ابن المفتي حسين بن رجب، شاوش، تقييدات ابن المفتي في: تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعوان، ط.1، دار الحكمة، الجزائر، 2009م.

79- المرجع نفسه، ص – ص، 20- 35.

80- أبو عمران، الشيخ وآخرون، مرجع سابق، ص 430.

81- هو محمد بن أحمد بن مريم المديوني، فقيه ومؤرخ، ولد بتلمسان ولا ندري في أي تاريخ بالضبط، إلا أنه عاش في القرن السابع عشر للميلاد، وانتهى من تأليف كتابه: "البستان ..." سنة 1603م، كما ذكر هو ذلك، تلقى العلم على يد أبيه، كما أخد العلم عن علماء مشهورين في زمانه، وتولى التدريس في كان أبيه، وتفرغ للتأليف، ألف ابن مريم في الفقه والسيرة وعلم الكلام والحديث وأشتهر بكتابه: "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، وترجم فيه لـ 182 شخصية. ينظر: أبو عمران الشيخ وآخرون، مرجع سابق، 340.

82- أبو عبد الله محمد بن مريم، المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد بن شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1908 ص 6

83- عبد الكريم، بن الفكون، مصدر سابق، ص 33.

84- هو محمد المختار بن محمد، الشوتري العياضي، أصله من دينة باجة وبها مولده، وكان أبوه من أهل العلم، فأخذ عنه وعن علماء بلده مبادىء اللغة العربية والفقه، ثم درس بجامع الزيتونة، و درس عن شيوخها مثل محمد الخضراوي، وأحمد الماكودي الفاسي وغيرهم، ثم ضمه الباي علي باشا إلى جملة كتاب ديوانه، وما زال في خدمته حتى عاد إلى وظيفة العدالة حتى وفاته عام 1757م. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر: في المصنفات والمؤلفين التونسيين ... مرجع سابق، ص 527.

85- المرجع السابق، ص 528 .

86- هو محمد بن محمد الباجي المسعودي، ولد بتونس سنة 1810م، قرأ على الشيخ ابراهيم الرياحي ومحمد بن الخوجة وغيرهما، وقدم للكتابة بدواوين الحكومة على عهد الباي حسين الثاني وعرفت منزلته في الإنشاء فترقى إلى رئاسة القسم الثاني من الوزارة الكبرى، وكان أديبا ذا مروءة وحسن الخلق، وتوفي سنة 1880م. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر: في المصنفات والمؤلفين التونسيين ...، مرجع سابق، ص 570.

87- المرجع نفسه، ص 570.

88- أبو القاسم، سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط .2 ش، و، ن ، ت، الجزائر، 1981م ، ص 159

89- هو اسم مختصر لا يدلنا كثيرا عن أصله و أصل عائلته، غير أنه ذكر أثناء شرحه أنه سمي (العارف بالله محمد بن سليمان الجزولي)، إلا أننا قد نستكمل الصورة عنه لما راح يتحدث عن والده وذكره عددا من شيوخه بتلمسان وبعض المشاهد والأحداث هناك. ينظر: ابو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء ... المرجع نفسه، ص 162.

90- المرجع نفسه، ص – ص 164- 165.

91- هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن سعيد العياشي، ذكره القادري بكنية أبي محمد أعياش، ولد عام 1628م بموطن قبيلة آيت عياش البربرية بإقليم تافيلالت جنوب المغرب الأقصى، ونشأ في أسرة علم ووجاهة، وتلقى تعليمه عن أبيه وشيوخ زاوية القلقليين، كما حصل بفاس على إجازات من بعض شيوخها، كما تعرف في طريقه إلى الحج على عدد كبير من العلاء، مثل الأجهوري في مصر، وشهاب الخفاجي، وعلي الشرابشي وفي الحجاز عبد العزيز الززي وابراهي الكردي وغيرهم، كما تعرف على شيخ ركب حجاج قسنطينة عبد الكريم بن الفكون، فتسب العياشي ثقافة دينية عميقة وأدبية واسعة، فبرز في علوم الحديث ومسائل الفقه وقضايا الأدب واللغة، فمال إلى الزهد والتصوف فجمع في ذلك بين أسلوب الشرق وطريقة الغرب، فاكتسب احترام العامة وتقدير الخاصة، إلا أنه وافته المنية عام 1680م، تر العياشي عدة تآليف منها: "تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا والآخرة" وكذلك رحلته المعروفة بـ: "ماء الموائد". ينظر: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي ...، المرجع السابق، ص- ص، 376- 377.

92- هو أحمد بن عبد الله بن عمار، فقيه ومفتي مالكي وأديب وشاعر، عارف بالمعقول والمنقول، له اهتمام بالتاريخ والتراجم والحديث والتفسير والتصوف، ولد بالجزائر حوالي 1119هـ، نشأ ابن عمار في الجزائر صبيا وشابا وكهلا دارسا وموظفا لدى الحكومة، وعاصر محمد بن ميمون وابن حمادوش والورثلاني وأباراس الناصري، إلا أن ابن عمار هاجر إلى الحجاز كما كانت له إقامة في تونس وان صديقا للوزير حمودة بن عبد العزيز، اشتهر ابن عمار برحلته المعروفة بـ: "نخلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب" وغيرها من التآليف، توفي سنة 1790. ينظر: عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة ...، مرجع سابق، ص – ص 336- 337.

93- ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي ...، مرجع سابق، ص 377.

94- هو ابراهيم بن أبي عبد الله محمد سيالة، ولد بصفاقس من عائلة نبيلة ومثقفة، انخرط أفرادها في الوظائف الحكومية، وتوفي سنة 1811م، ألف كتاب: "تاريخ دولة الباي حودة باشا

الحسيني"، وله كتاب آخر هو: "منتخب الأسانيد في وصل المصنفات والأجزاء والمسانيد"، وهو ثبت في مرويات شيخه المحدث أحمد بن عمار الجزائري صاحب الرحلة الحجازية. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين ...، مرجع سابق، ص 538.

95- هو محمد بن محمود بن حسين الجزائري المشهور بابن العنابي، ولد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي(1775م) في مدينة الجزائر وهو من أسرة تركية قديمة في الجزائر، تلقى تعليمه على يد والده ثم على المفتي المالكي علي بن عبد القادر الأمين، وتولى ابن العنابي وظائف حوية هامة في الجزائر فتولى وظيفة القضاء الحنفي، كما كلفه الداي عمر باشا بسفارة للمغرب الأقصى لدى السلطان المولى سليمان، وعند احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م نفته إلى الإسكندرية ليتولى الفتوى هناك، وفي مصر ألف كتابه: "السعي المحمود في نظام الجنود" وهو من أوائل الكتب التي عالجت قضية التجديد في النظم الإسلامية والأخذ بالنظم الحديثة، وتوفي عام 1850م. ينظر: عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة ...، مرجع سابق، ص—ص، 346- 347. وينظر أيضا: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري— المصري ابن العنابي وكتابه" السعي المحمود في نظام الجنود"، مجلة الأصالة، وزارة الثقافة، الجزائر، ع: 31، مارس 1976، ص- ص، 38- 39- 40. أيضا ينظر: عادل نويهض، معجم ...، مرجع سابق، ص 246.

96- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500- 1830م، ج. 1، ... مرجع سابق، ص 295.